

الفصل السادس



التربية المدرسية العالية

لقد حث الاسلام على التعليم فأقبل المسلمون عليه وانتشر في المساجد والجوامع في جميع البلاد الاسلامية وكثرت الحلقات التعليمية فيها بجانب الصلاة والعبادة وأحس المسلمون أنهم حقاً في حاجة الى انشاء مدارس علمية ومعاهد عالية كي لا يحدث ضجيج في المساجد الضيقة في أثناء الدرس بسبب الجدل والمناقشة في الدروس ويرى المقرئ أن المدارس لم تعرف في عهد الصحابة والتابعين ولم تنشأ الا في نهاية القرن الرابع الهجري وأن أهل نيسابور أول من بنوا مدرسة في الاسلام وسموها المدرسة البيهقية .

وقد تسابق الخلفاء والمسلمون في انشاء المدارس الاسلامية العالية وأعدوها اعداداً كاملاً وبنوا في كل مدرسة كبيرة ايواناً ؛ أى قاعة متسعة للمحاضرات بحيث تسع عدداً كبيراً من الطلبة المتشوقين لطلب العلم وقسموا داخلها ليقوم فيه الطلاب ويتفرغوا للدراسة ومساكن خاصة بالمدرسين والعلماء الذين يقومون بالتدريس وأنشئوا بها جميع وسائل الراحة من المرافق ودورات المياه والمطبخ الذي تطهى فيه الأطعمة والمطعم الذي يتناولون فيه طعامهم .

وكان لكل مدرسة ايراد خاص يؤخذ من الأوقاف التي وقفت على المدرسة للانفاق على طلبتها وأساتذتها .

وقد عني تلك المدارس بدراسة الدين الاسلامي والفقه على المذاهب السنية الاربعة والتوحيد واللغة العربية ونشر العلوم والمعارف وتقوية مذهب أهل السنة ومقاومة أهل الشيعة وهم أنصار سيدنا علي . وهنا نذكر أهم تلك المدارس العالية :

١ - المدرسة النظامية ببغداد :

حينما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الاسلامي ظهر اسم الوزير نظام الملك الذي كان السلطان الحقيقي للدولة الاولى للسلاجقة . وكان هو نفسه فقيهاً وعالماً (١) فكانت تعقد المناظرات في حضرته . وقد خرج له الغزالي مرة وناظر الأئمة والعلماء في مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه على الجميع فولاه نظام الملك التدريس بمدرسة من المدارس العالية

(١) طبقات الشافعية

الشهيرة وهي المدرسة النظامية ببغداد التي أنشأها ذلك الوزير العظيم نظام الملك . وقد بدأ في بنائها سنة ٤٥٧ هـ وتم بناؤها سنة ٤٥٩ هـ وتقع على شاطئ نهر دجلة . وقد أنشأ كثيرا من المدارس النظامية التي نسبت اليه المدرسة النظامية ببغداد هي المدرسة الأولى منها . وتعد حقا من المدارس العظيمة التي يحق لنا أن نفخر بها . وعين لها الأساتذة والعلماء فانتظمت أحوالها .

ومن أساتذة المدرسة النظامية ببغداد الشيخ أبو اسحق الشيرازي صاحب كتاب التنبيه (١) في الفقه على مذهب الشافعية وهو عالم جليل أحيا من العلم مدارس وكشف من الحق ما التبس، وشرح الأصول وفرعها، وأوضح الأدلة ونوعها ، وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد فهرس واف دقيق يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد وهي موقوفة على تلك المدرسة .

وأنشأ في كل قرية ومدينة مدرسة للعمل على نشر العلم والدين وأمدّها بالكتب والمال والمدرسين . قال أبو شامة في كتاب الروضتين : « ومدارس نظام الملك في العالم مشهورة لم تخل بلد من شيء منها ، وهي تمثل المدارس في القرون الوسطى وقد أنشأ مدرسة فخمة في كل من البلاد الآتية :

بغداد ، وبلخ ، ونيسابور ، وهرات ، وأصفهان ، والبصرة ، ومرو ، وآمل ، والموصل . وكان في كل من مدن العراق ومدن خراسان مدرسة لنظام الملك وحاكاه غيره من المسلمين في إنشاء المدارس فانتشرت في القرى والبلدان والعواصم الكبيرة في البلاد الإسلامية .

ولم تنشأ في مصر مدارس إلا بعد أن انتهت دولة الفاطميين وقامت دولة الأيوبيين . ففي عهد الدولة الأيوبية انتشرت المدارس كثيرا في مصر كما انتشرت في سورية وظلت تنتشر في عصر المماليك . وكان لنور الدين زنكي الذي صار ملكا لسورية بعد انتهاء عهد السلاجقة ميل كبير لرعاية الثقافة والعلوم وكان للعلماء عنده مجلس عظيم وكان يجمعهم عنده للبحث والمناظرة واستقدمهم اليه من البلاد الشاسعة الأطراف .

والفرق بين المدرسة والمسجد لا يذكر فالمسجد كان للعبادة والتعليم والنظر في القضايا ومظالم الناس وبالمثل كانت المدرسة غير أنها كانت معدة للدراسة وإقامة الطلبة المتفرغين وقد تنافس الخلفاء والأثرياء من

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٥

من المسلمين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فى إنشاء المدارس منذ القرن الحادى عشر الميلادى • ويظهر الفن الإسلامى فى مباني تلك المدارس وخصصت بها أوقاف كثيرة للانفاق منها على من بها من الفقهاء والطلبة والموظفين وكان الطلاب يسكنون فى أقسامها الداخلية كما يحدث الآن فى جامعتى اكسفورد وكمبردج •

٢ - المدرسة المستنصرية ببغداد :

وتعد المدرسة المستنصرية التى أنشأها الخليفة المستنصر ببغداد فى القرن الثالث الميلادى من أعظم المدارس الإسلامية • وقد بذل فى تشييدها كثير من المال مما يدل على عناية المسلمين بالتربية والتعليم وتقديسهم للعلم والعلماء • وكان بها قاعة للمحاضرات لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، ولكل مذهب أستاذ خاص ، وكان الطالب يتعلم بالمجان فيها ويتسلم دينارا من الذهب كل شهر وتزود المدرسة طلبتها باللحم والخبز كل يوم • وكان بها مكتبة غنية تشتمل على كتب كثيرة فى جميع العلوم ، كى يتمكن الطلبة من الاطلاع على ما يشاءون منها وجعل فيها ما يحتاج اليه من الورق والمداد لاستعمالها وانتفاع المطلعين والناسخين بهما • وكان بها حمامات للاستحمام ومستشفى به طبيب لمعالجة الطلاب •

٣ - المدرسة الناصرية بالقاهرة :

وقد ذكر المقرئى ، ان السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى بدأ فى بناء المدرسة الناصرية بالقاهرة وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ وقال : انها من أجمل مباني القاهرة وبابها من أعجب ما عملته أيدي بنى آدم وذكر أيضا عن المدرسة الطيبرسية أنها أنشئت بجوار الجامع الأزهر سنة ٧٠٩ بالقاهرة •

وقد قامت الدولة الأيوبية بإنشاء كثير من المدارس فى مصر واشترك المصريون فى أنشائها وأسهم السكان حتى الحدم فى بنائها رغبة فى نشر العلم والتعليم بين المسلمين • وكان فى كل مدرسة مكتبة تزود بالكتب كى يسهل على الطلبة الاطلاع •

وانتشرت المدارس فى مصر وسورية وبغداد وشجع الخلفاء والمسلمون التعليم بكل وسيلة •

ومن المدارس التي أنشأها الملك الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى :

٤ - المدرسة النورية الكبرى بدمشق :

وقد زارها ابن جبير ونذكر هنا ما وصفها به مع قليل من التصرف :
« من أحسن مدارس الدنيا مظهرا مدرسة نور الدين رحمه الله . وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء وسط نهر عظيم وفيه كل ما يحتاج اليه معهد علمي للدراسة العالية . وهو مزود بقسم داخلي كامل المرافق ، وتبعد تلك المدرسة عن الجامع الأموى بدمشق ينصف ميل تقريبا . ومساحتها ١٥٠٠ متر مربع بالتقريب . وبها بيت خاص لمدرسي المدرسة ، وأهم مكان بها قاعة المحاضرات ، وهي قاعة كبيرة تسع عددا كبيرا من الطلاب . وبالمدرسة مسجد مفتوح لمن يرغب في العبادة . وهناك استراحة للمدرسين ومسكن للطلبة المقيمين بالقسم الداخلي ومسكن لخادم المدرسة ودورة للمياه ومخزن للأدوات الزائدة بالمدرسة » .

ويعد ظهور المدارس أهم محاولة في الإسلام لتنظيم الدراسة والتربية والتعليم في البلاد الإسلامية وتوفير وسائل التفرغ لطلب العلم بتقديم المساعدات المالية للطلاب وتزويد تلك المدارس بالأساتذة المختارين والكتب النادرة .